من همومنا في النقد ...

بقلم عدنان ابن ذريل

ما اكثر ما أهمنا النقد الادبي اليوم !. وما اكثر ما تشكينا من افتقاره ، الى الناقد المنصف !. وما اكثر ما التمسنا الحلول لمشكلة النقد والنقاد !.

ولا مراء ان الادب اليوم في ازدهار ، تسري فيه روح بعثنا الجديد ، وتنعكس فيه آمالنا ، وأمانينا .. فالشعر قد تطور عن ذي قبل ، والنثر يحيا حيوات جديدة ، وكلاهما .. الكثير منهما جيد ، قيم ، ينم عن أصالة ، وتجديد !!

اما النقد الادبي، الذي يواكب حركات الشعر والنثر، فما يزال الى اليوم ، دون المستوى المرجو له .. وسيظل كذلك حتى يقيض له التأصيل الدقيق ، الامين .. فقد تطمئن اليوم لقراءة قصة ، أو رواية ، وتطمئن كذلك الى سماع قصيدة ، في حين يندر أن تطمئن الى نقد ذلك كله .. لان النقد الى اليوم أمشاج من آراء ، وانطباعات ، وخواطر في مذهب من المذاهب ، أو منحى من المناحي ، أو أثر من الآثار ..

من مظاهر النقد الادبي الحديث ، ان الادباء ، والمنشئين اليوم يدبجون الصفحات تلو الصفحات ، في أمياهم ، وفنيتهم ، يشرحون فيها تفننهم ، ويبررون لحودهم على هذا النحو ، او ذاك ، وتجد ذلك عند الشعراء ، والقصاصين، والروائيين، والمسرحيين، على السواء ..

فالتأصيل عند الاديب ، او المنشيء اليوم يكاد أن يطغي على الابداع عنده ، ويكاد ان يفسده .. وكثيرا ما هو بالفعل يربكه .. وكثيرا ما هو يفسد على القارىء ذوقه ، وعلى الناقد احكامه .. ان تراث هذا التأصيل الذي للادباء ، والمنشئين انفسهم ، لا شك قيم ، وهو اليوم في ازدياد .. وان دراسته لا شك ايضا مفيدة .. الا ان علينا ان نظل منه على حذر ، نعرضه بدقة ، ونفنده بأمانة .. انه ارادة المبدعين في ابداعهم ، وفنيتهم في فنهم .. وكثير منه جزئي ، أو ذاتي .. في حين النقد الادبي أوسع افقا ، وأرحب منطلقا ..

ومن مظاهر النقد الادبي اليوم ، ارادة التمذهب ، والدعوة الى لحود دون آخر .. وقد تجلت ايضا في الشعر ، والنثر ، كليهما ، جميعا .. فتجد الناقد الذي من هذا الطراز ، يؤثر نوعا من القريض ، او من القصص، فيبين محاسنه ، ويظهر مواطن الجمال فيه ، وينافح عنه ، ويدعو اليه ..

هذا النوع من النقاد ، في نظري ، صعب الاطمئنان الى أحكامه .. انه بالاحرى بوق دعوة ، وصدى لحود.. فمثلا تجد بعض نقاد القصة اليوم ، او بالاحرى من تصدوا لنقد القصة ، يتحزب للمشكل ، المعضل ، المعقد ، والانساني ، على حد تعبيره ، من القصص ، فيعزف عن كل نوع قصصي آخر ، واقعي ، أو رمزي ، ناعتا ذلك بالسطحية ، او القصور .. كما تجد بين نقاد الشعر اليوم ، أو من يزعمون نقده ، من يتحزب للانماط الحديثة من الشعر ، من حياتية ، أو متحررة ، ويعزف عن كل أثر شعري غيرها ، من ملحمي ، أو مسرحي .. ناعتا ذلك ايضا بالتكلف ، والافتعال ..

ومن مظاهر النقد الادبي اليوم ، الاخذ بالمنهج العلمي، ويظن البعض ان الاخذ بالمنهج العلمي في النقد هو ان نكون آلات صماء للقياس ، والتصنيف ، نقرر، ونبسط ، ونسوا ان النقد الادبي في أساسه عملية تقييم ، وذوق ، وانه حكم بالجودة ، او الرداءة ، بالجمال ، او القبح .. وان معظم ما يقومون به من تقرير ، أو تصنيف ، حول الادب، نفل ، أو سقط من المتاع .. ليس من النقد في شيء ..

ان المذاهب الجمالية الكبرى ، كالمبادىء التي وراء الابداع لا تفيد النقد ، كما ان تقصي اسبابها، وخصائصها في الاثرا لادبي لن يخدم قضية النقد .. ان مجال النقد مجال أدق .. انه لا يتعدى مجاراة الاديب ، أوا لمنشيء ، في تجربته ، تفهمها ، وتذوقها ، والحكم عليها .. بما لها، وما عليها ..

ومن مظاهر النقد الادبي اليوم ، الاخذ بالاسباب الاساوبية .. فازدهار الادب اليوم دفع بالنقاد الى اعتبار الاسلوب في مجموعه ، في الاثر الادبي ، بدل اعتبار الجملة ، او اللفظة فيه .. وتكاد النظرة الاساوبية اليوم ان تكون عمل النقد الادبي .. فحديث النقاد في الشعر

اليوم ينصب في موضوعه عامة ، ثم في صفات هـذا الشعر ، سبكه ، وأخيلته .. وحديث النقاد في القصة ، او الرواية ، أو المسرحية اليوم كذلك ينصب في سردها ، وعقدها ، في اشخاصها وتحليلها ، ثم في ديباجتها ، والفاظها ..

والمميزات الاسلوبية ترجع الى الاديب ، او المنشىء، وطريقته في التفكير ، او التعبير .. وهي لا شك غير الخصائص التي يتميز بها مذهب من المذاهب .. فالتمذهب إنضواء ارادي لزمرة من الادباء ، او المنشئين تحت مبادىء معينة ، يعملون لها ، وينافحون عنها ، تميز أدبهم بخصائص عامة ، مشتركة .. في حين الاسلوب طريقة في الكتابة ، او القريض .. فيها طابع صاحبها في شعوره ، وتخيله ، وادائه .. وعلى الناقد اليوم تمييز ذلك كله ، التمييز الدقيق ، الامين ..

وقد نشط كثير من البلاغيين اليوم للتجديد في البلاغة العربية .. فعمدوا الى القديم ، يستقصونه ، وينخلونه .. والى الجديد ، يتدارسونه ان في مظان الاقتباس ، او على النماذج الادبية الحديثة نفسها ..

وقد اقتصرت كتب البلاغة القديمة ، الا فيما ندر ، على دراسة احوال الجملة ، واللفظة ، كما ان ما ترجم قديما عن بلاغة القدماء من يونان ، أو لاتين ، لم يف بالقصد البلاغي عن السلف ، ولم يصب مطلبا في بلاغة العرب ، وقد كانت بلاغة القدماء من اليونان ، او اللاتين، اسلوبية.. تعالج اساليب كبرى في مجموعها ، وفنيتها.. مثل الخطابة ، والتعليم ، أو مثل المأساة ، والملهاة ، والملحمة .. ولما لم يكن في تراثنا القديم مثل هذه الاساليب ، فقد أهملت ، وظل تأثيرها في الفكر البلاغي محدودا ..

وقد ورثت مظان الاقتباس اليوم ، على تنوعها ، بلاغة القدماء من اليونان ، واللاتين ، ولم تتوفر لتطويرها، او التجديد فيها .. اللهم ، الا في جزئيات بسيطة ، جاءت ثانوية .. في حين كان نصيب الدراسات الجمالية، والنقدية عندها ، اكبر .. وذلك منها ، مجاراة لتقدم العلوم ، والبحث العلمي .. ولذلك وجدنا مظان الاقتباس توفر الدراسات الجمالية ، والنقدية ، على الخصوص العلمية منها .. وقد اخذنا ننشط لمثل هذه الدراسات نقتفي فيها اثر من سبقنا في بحثها .. ومن هنا هذا الرصيد العربي الكبير الذي نجده في الدراسات الجمالية والعلمية ، النفسية والاجتماعية ، في الفن ، والادب ، والنقد .. وهي دراسات مفيدة ، وتخدم قضية النقد.. الا ان النقد الادبي شيء اخر يحتاج هو نفسه الى تأصيل ، ودعم ..

والنقاد اليوم يستقون معاييرهم من مناهل عدة .. من مظان الاقتباس التي يحاولون اصطناع معاييرها ، ومن نتاج المبدعين ، وآرائهم في فنيتهم ، ومن ارث البلاغة العربية ، والتجديد الحديث فيها .. والمذاهب الادبية اليوم متعددة في التأليف ، والتقييم.. والنظرة الاسلوبية في النقد تكاد ان تطغى على كل نظرة اخرى فيه ..و في السوق كثير من المذاهب الجمالية ، والعلمية ، في الادب ، والنقد ..

وفي نظري ... سيظل العرب مع الاسلوب ، ويظلون مع الذوق .. ان المستقبل للبلاغة التي ستحدد، بتجديدها ، الاصول في بحث الاسلوب ، ونقده . كما ان المستقبل للموضوعية التي تميز بها الفكر العربي طيلة عصوره .. وليس بعيدا اليوم الذي نجد فيه النقد الادبي عندنا موضوعيا ، اسلوبيا ، يقوم على العلم ، وينصف الذوق ..

دمشق — عدنان ابن ذريل

فتاة في المدينة ..

مجموعة اقاصيص بقلم

محمد ابو المعاطي ابو النجا

دار الاداب — صدر حديثا